دور المرأة المسلمة في الصحة والتنمية -٣-

د. محمد هيثم الخياط

(أشار الأستاذ الدكتور هيثم الخياط في الحلقة الماضية إلى منطلقات ثلاثة في قضية المرأة ، ودلّل عليها من القرآن والسنة ، وهي : المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة ، والتسوية الحقيقية بين المرأة والرجل في الخطاب القرآني والنبوي ، ثم أشار في المنطلق الثالث إلى أن الممارسة الوحيدة التي نعتد بها ونقتدي بها هي ممارسة الخلفاء الراشدين) .

في إطار المنطلقات الثلاثة المتقدمة نعود إلى نصوص الكتاب والسنَّة لنستنبط منها دور المسلم ، ذكَراً كان أم أنثى ، في عمارة هذا الكون وفي بنيان المجتمع .

وأول ما نرجع إليه من نصوص هو قوله تعالى : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ... ﴾ [التوبة : ٧١] وتلفت نظرَنا قبل كل شيء هذه الولايةَ : ولايةُ المؤمنين للمؤمنات وولايةُ المؤمنات للمؤمنين . وهذه الولاية – واللّه أعلم – تعبيرٌ عميق عمّا يُفترض أن يكون بين المؤمنين – ذكوراً وإناثاً – من تماسُك وتعاوُن وتناصُر وتساعُد . وضّحه النبي ﷺ بقوله : « **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ : إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى** » [متفق عليه عن النعمان بن بشير] . وهذا البنيان المجتمعي الذي يشبه الجسد الواحد لا يُستثنى منه عضو من الأعضاء بل ولا خلية من الخلايا ، مذكرة كانت أم مؤنثة . وتزيد أحاديث النبي ﷺ هذه الولاية توضيحاً كقوله صلوات اللّه عليه : « **خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ** » [رواه الدار قطني في '' الأفراد '' والضياء المقدسي في '' المختارة '' عن جابر] . ومثله قوله ﷺ : « **مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ** » [رواه مسلم عن جابر] .

فالمفترض في كل مسلم ومسلمة أن ينفع أخاه ويعمل ما في وسعه على أن يجلب إليه ما فيه مصلحته . ولا يسمح الإسلام للمسلم – ذكَراً كان أم أنثى – أن يكون سلبياً أو لا أبالياً ، بل ينـــزع صفة الانتماء إلى المجتمع الإسلامي عن كل فرد من أفراده لا يهتم بمصلحة الآخرين ، لأن « **مَنْ لا يَهتمَّ بأَمْرِ الْمُسْلمينَ فَلَيْسَ منْهُمْ** » [كما في الحديث الذي رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن حذَيفة بن اليمان] .

وقد وردت الإشارة إلى هذه الولاية بصيغة أخرى في القرآن الكريم ، وهي قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ...﴾ [الحجرات : ١٠] ، ووضّح ذلك النبي ﷺ بقوله : « **لاَ يُؤْمنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحبَّ لأَخيه مَا يُحبُّ لنَفْسه منَ الْخَيْر** » [متفق عليه عن أنس ، وزيادة (من الخير) لأبي عوانَة والنسائي وأحمَد في رواية لهم] وقوله صلوات اللّه وسلامه عليه : « **الْمُؤْمنُ أَخُو الْمُؤْمن : يَكُفُّ عَلَيْه ضَيْعَتَهُ وَيَحُوطُهُ منْ وَرَائه** » [رواه أبو داود وخرجّه العراقي في تخريج الإحياء] ، وقوله [في حديث متفق عليه عن ابن عمر] : « **الْمُسْلمُ أَخُو الْمُسْلم : لاَ يَظْلمُهُ وَلاَ يُسْلمُهُ** » (وفي رواية [لمسلم عن أبي هريرة] : « **ولا يخذله** ») « **وَمَنْ كَانَ في حَاجَة أَخيه كَانَ اللَّهُ في حَاجَته ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلم كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بهَا كُرْبَةً منْ كُرُب يَوْم الْقيَامَة ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقيَامَة** » . فَجَلْبُ كل ما فيه مصلحة لأفراد المجتمع الإسلامي أو للمجتمع كله ، ودَرْءُ كل مفسدة عن أفراد المجتمع الإسلامي أو المجتمع كله ، هو تحقيق عملي لهذه الأخوّة والولاية التي اعتبرها اللّه عزَّ وجلَّ صفة طبيعية ولازمة من صفات المؤمنين والمؤمنات .

وإذا كانت الشعائر التعبُّدية فرضَ عَيْن على كل مسلم ومسلمة ، فإن جلبَ المصالح ودرءَ المفاسد فرضُ كفاية على كل مسلم ومسلمة ، أي إنه فرضٌ جماعي ، لا بد من أن يُقام به . فإن لم يَقُمْ به أحد فالكل آثمون . ولذلك يعتبر كل مسلم ومسلمة فرض الكفاية موجَّهاً إليه قبل سائر إخوانه ، ويتنافس وإياهم على القيام به ، تنفيذاً لقول اللّه عزَّ وجلَّ : ﴿ ... **فَاسْتَبقُوا الْخَيْرَات** ... ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، وقول النبي ﷺ : « **بَادرُوا بالأَعْمَال الصَّالحَة** » [رواه مسلم عن أبي هريرة] .

يقول سلطان العلماء العزُّ بن عبد السلام في كتابه النفيس " قواعد الأحكام

في مصالح الأنام "[١٨٩/٢] :

« وأجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلِّها ، والزَّجر عن المفاسد بأسرها ، قولهُ تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل : ٩٠] . فإن الألف واللام في العدل والإحسان للعموم والاستغراق ، فلا يبقى من دقِّ العدل وجلِّه شيء إلا اندرج في أمره في قوله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ** ﴾ ولا يبقى من دقِّ الإحسان وجلِّه شيء إلا اندرج في أمره بالإحسان . والعدلُ هو التسوية والإنصاف ، والإحسان : إما جلبُ مصلحة أو دفع مفسدة .. » .

وإن المرء ليعجب من كثرة الألفاظ التي عبّر اللّه عزَّ وجلَّ بها عمّا فيه صلاح الناس ونفعهم : كالحقِّ والبرِّ والخير والمعروف والإحسان والصدقة والإصلاح .. فالحق هو ما ينفع الناس لقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ ... **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ** (الباطل) **فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ** (الحق) **فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ... ﴾ [الرعد : ١٧] . والبرُّ أيضاً ما ينفع الفرد والمجتمع لأن نقيضه الإثم وهو ما يضر الفرد والمجتمع ، كما يتبيَّن من قوله تعالى عن الخمر والميسر : ﴿ ... **فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا** ... ﴾ [البقرة : ٢١٩] فجعل الإثم نقيض النفع . والبرُّ والمعروف يكادان يتطابقان ؛ فقد قال النبي ﷺ [في حديث رواه البخاري في الأدب المفرد عن حرملة بن عبد اللّه] :

« **ائت المعروف واجتنب المنكر!**

« **وانظر ما يعجب إذنك أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم ، فائته ..**

« **وانظر الذي تكرهه أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم فاجتنبه** » .

وقال أيضاً : « **الْبِرُّ : حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالإِثْمُ : مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ** » [رواه مسلم عن النواس بن سمعان] . ثم إن المعروف قطاعٌ من قطاعات الصدقة ، لقوله ﷺ : « **كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ** » [رواه البخاري عن جابر ، ومسلم عن حذيفة] .

و '' الصدقة '' لفظ جميل يطلقه الإسلام للتعبير عما نقول له اليوم : '' السلوك الحضاري '' أو '' التصرُّف الحضاري '' . ذلك أنها بدلالة اسمها '' مصداق '' انتماء المرء إلى المجتمع الإسلامي المتحضر . يدل على ذلك قول النبي ﷺ : « ... **وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ** ... » [رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري] .

وهذه المصداقية تتأتى بأنماط متعددة من السلوك ، كلٌّ منها ينبئ بكل صراحة عن شعور المسلم ، بالانتماء إلى مجتمع المؤمنين ، والمساهمة في تقوية روابط الولاية والأخوة بين خلايا الجسد الإسلامي .

والإسلام يطلب من كل مسلم ، ذكراً كان أم أنثى ، أن يثبت يومياً : مرةً في اليوم على الأقل ، انتماءه إلى المجتمع الإسلامي ، بتصرف حضاري واحد على الأقل . ففي ذلك التوجيه العام الذي أصدره معلِّم هذه الأمة ﷺ قال : « **عَلَى كُلِّ نَفْسٍ ، فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ ، صَدَقَةٌ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ** » [رواه أحمد عن أبي ذر بإسناد صحيح] .

ولقد تبادر إلى ذهن أحد السامعين ، قَصْرُ مفهوم الصدقة على المظهر المالي لها ، فسأله : من أين أتصدّق وليس لنا أموال ؟ وجاء الجوابُ التوضيحي الواسع ، يبين أن للصدقة أبواباً عديدة :

« ... **لأَنَّ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ التَّكْبِيرَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ للَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتَعْزِلُ الشَّوْكَةَ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَالْعَظْمَ وَالْحَجَرَ ، وَتَهْدِي الأَعْمَى ، وَتُسْمِعُ الأَصَمَّ وَالأَبْكَمَ حَتَّى يَفْقَهَ ، وَتُدِلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَةٍ لَهُ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا ، وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ إِلَى اللَّهْفَانِ الْمُسْتَغِيثِ ، وَتَرْفَعُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ .. كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ** ... » [رواه أحمد عن أبي ذر] .

ولكن النبي ﷺ في الوقت نفسه لم يَدَعْ موضوع الأموال بلا جواب ، ففي رواية متفق عليها عن أبي موسى قال : « **عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ** » قَالُوا : فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ : « **فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ** ... » .

وفي رواية أخرى عن أبي ذر :

« **تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلالِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ** » [رواه الترمذي – والسياق له – والبخاري في الأدب المفرد وابنُ حبان] .

وفي حديث ثالث عن أبي ذر :

سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ : ... فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ ؟ قَالَ : « **تُعِينُ صَانِعًا** (أو قال : ضَائِعًا) **أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ** » قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ ؟ قَالَ : « **تَدَعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ** » [متفق عليه] .

وفي حديث رابع :

« **كلُّ كلمة طيبة صدقة ، وعَوْنُ الرجل أخاه صدقة ، والشربة من الماء تسقيها صدقة ، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة** » [رواه البخاري في الأدب المفرد بإسناد حسن] .

بعد هذه القائمة الطويلة من المعروفات والصدقات والأعمال الصالحة ، تشرق أمام أعيننا الصورة التي ترسمها الآية الكريمة : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ... ﴾ [التوبة : ٧١] ، فتتجلى لنا أكثر ، أهمية قيام جميع المؤمنين وجميع المؤمنات بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. أعني الأمرَ بقائمة لا متناهية من المعروفات ، والنهيَ عن قائمة لا متناهية من المنكرات .. الأمرَ بكل ما فيه مصلحة للفرد والمجتمع ، والنهيَ عن كل ما فيه مفسدة للفرد والمجتمع .. وبديهيٌّ أن الذي يأمر بالمعروف يأتي المعروف وأن الذي ينهى عن المنكر يجتنب المنكر ، لقوله ﷺ : « **ائت المعروف واجتنب المنكر** » . وقد ذكر رسول اللَّه ﷺ قوماً يُعذَّبون ، يقول أحدهم : « **كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيه وكُنْتُ أَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيه** » [متفق عليه عن أسامة بن زيد] . وقال اللَّه عزَّ وجلَّ إخباراً عن سيدنا شعيب عليه السلام : ﴿ ... **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ... ﴾ [هود : ٨٨] .

هذه الصورة المشرقة يزيدها إشراقاً وبهاءً مفهوم النصيحة ، بكل ما تشتمل عليه كلمة النُّصْح من محبة الناصح للمنصوح وإخلاصه في نصحه . وقد قال رسول اللّه ﷺ [في ما رواه مسلم عن تميم بن أوس الداري] : « **الدِّينُ النَّصيحَةُ** » قُلْنَا : لمَنْ ؟ قَالَ : « **للّه وَلكتَابه وَلرَسُوله وَلأَئمَّة الْمُسْلمينَ وَعَامَّتهمْ** » . وقد كان النبي ﷺ يطلب مَن أصحابه أن يبايعوه على « ... **النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ** » [متفق عليه عن جرير بن عبد اللّه] .

فإذا ضممنا إلى ما تقدَّم ما ندعو إليه من الرؤية العصرية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، زادت صورة المجتمع الصالح الذي يدعو إليه الإسلام وضوحاً وجلاء ، بالتوسُّع في مفهوم ما فيه مصلحة وما فيه مفسدة .

مخالفةُ إشارة المرور في عصرنا هذا تندرج في المنكر ، لأن النبي ﷺ يقول : « **عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلاَّ أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ** ... » [متفق عليه عن ابن عمر] وتنظيم المرور ليس معصية بل هو مصلحة وخير وبرّ ، فالالتزام به واجبٌ بنص الحديث ، ومخالفته منكر ، ولفتُ نظر مَنْ يخالفه أمرٌ بالمعروف .. إلقاءُ ورقة على الطريق في غير المكان المحدد لها منكر ، وتوجيهُ من يقترف ذلك أمرٌ بالمعروف .. إفسادُ البيئة بأي صورة من الصور منكر ، والنهيُ عن إفسادها نهيٌ عن المنكر والأمر بإصلاحها أمرٌ بالمعروف .. التدخينُ الذي يعرّض صحة المدخن وصحة مَنْ حوله إلى أخبث الأمراض منكر ، وإقناعُ المدخنين بالإقلاع عنه نهي عن المنكر ، ونصحُ غير المدخنين ولا سيّما الشباب بعدم الوقوع في براثن التدخين أمرٌ بالمعروف .. إرضاع أطفالنا من الثدي معروف ، والتبشير به والدعوة إليه بين الأمهات أمرٌ بالمعروف .. تطعيمُ أطفالنا لتحصينهم من الأمراض المعدية معروف ، لأنه يقيهم غائلة أوخم الأمراض ، والدعوة إلى تعميمه أمر بالمعروف .. وهي كما نرى قائمة لا تنتهي من المعروفات والمنكرات . وقد ذمَّ اللّه قوماً : ﴿ **كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ** ... ﴾ [المائدة : ٧٩] ، وقال مُثنياً على الذين يحاربون الفساد : ﴿ ... **أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ** ... ﴾ [الأعراف : ١٦٥] وقال النبي ﷺ : « **انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا** » فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللّه أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ

مَظْلُومًا ، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ : « **تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ** » [رواه البخاري عن أنس] . ومفهوم النصرة هذا يعود بنا إلى أول الآية ، وإلى الحديث عن ولاية المؤمنين والمؤمنات بعضهم لبعض .

في مقابل هذه الصورة المثالية المشرقة ، تواجهنا الصورة المظلمة التي عاشتها هذه الأمة على مدى القرون الثلاثة العشر الماضية ، من جرّاء الشلل الذي أصاب نصف المجتمع في القيام بهذه الفروض الكفائية ، وهي صورة نستطيع أن نتلمَّس معالمها إذا قابلنا بين ما أمر اللَّه به ورسوله وبين ما أصاب نصف مجتمع المسلمين :

اللَّه عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ ... **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ** ... ﴾ [الحج : ٧٧] ، ويقول : ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ** ... ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، ونصف مجتمع المسلمين محروم من فعل الخير والدعوة إليه!

اللَّه تبارك وتعالى يقول : ﴿ ... **أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ** ... ﴾ [البقرة : ٢٦٧] ، ونصف مجتمع المسلمين ممنوعٌ من الكسب والإنفاق من الطيبات!

اللَّه ﷻ يدعو إلى القَرْن بين الإيمان والعمل الصالح فيقول : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ... ﴾ [النحل : ٩٧] ، ويقرن عزَّ وجلَّ بينهما في نيِّف وثمانين آية حضاً على العمل الصالح ، ونصف مجتمع المسلمين غيرُ مُمَكَّنٍ من القيام بالعمل الصالح!

اللَّه جلَّ وعلا يقول : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ... ﴾ [التوبة : ٧١] ، ونصف مجتمع المسلمين محجوزٌ عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

اللَّه تعالى ذكره يقول : ﴿ ... **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى** ... ﴾ [المائدة : ٢] ، ونصف مجتمع المسلمين محروم من التعاون على البر والتقوى!

النبي ﷺ يقول : « **طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ** ... » [رواه ابن ماجة عن أنس] ، ونصف مجتمع المسلمين محظورٌ عليه طَلَب العلم غارق في دياجير الجهل!

اللَّه ﷻ يُثني على الذين ﴿ ... **تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر : ٣] ، وعلى الذين ﴿ ... **تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾ [البلد : ١٧] ، ونصف مجتمع المسلمين موقوفٌ عن التواصي بالحق والصبر والمرحمة!

النبي ﷺ يعتبر « **الدِّينُ النَّصيحَةُ** ... **لأَئمَّة الْمُسْلمينَ وَعَامَّتهمْ** » [رواه مسلم عن تميم الداري] ، ونصف مجتمع المسلمين غيرُ مُمَكَّنٍ من النصيحة لأئمة المسلمين وعامّتهم!

اللَّه جلَّ شأنه يقول : ﴿ **لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ** ... ﴾ [النساء : ١١٤] ، ونصف مجتمع المسلمين محجوزٌ عن الإصلاح بين الناس .

النبي ﷺ يقول عن كل مسلم ومسلمة : « ... **يَعْمَلُ بِيَده فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ** ... » [متفق عليه عن أبي موسى] ، ونصف مجتمع المسلمين لا يُسمح له أن يعمل بيده!

النبي صلوات اللَّه وسلامه عليه يعتبر من الإيمان « ... **إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ** ... » [رواه مسلم عن أبي هريرة] ، ونصف مجتمع المسلمين لا تُتاح له إماطة الأذى عن الطريق!

رسول اللَّه ﷺ يقول : « ... **مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيه كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِه** ... » [متفق عليه عن ابن عمر] ، ونصف مجتمع المسلمين لا يقوم بقضاء حوائج المسلمين!

النبي عليه السلام يعتبر من الصدقات التي يأمر به « **إِعَانَةَ الأَعْمَى وَالأَصَمَّ وَالأَبْكَمَ وَالضَّعِيفِ** » [رواه أحمد عن أبي ذر] ، ونصف مجتمع المسلمين غيرُ مُمَكَّنٍ من إعانة هؤلاء جميعاً ولا من سائر الصدقات!

اللَّه تبارك وتعالى يقول : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ** ... ﴾ [النحل : ١٢٥] ، ونصف مجتمع المسلمين غيرُ مُمَكَّنٍ من الدعوة إلى سبيل ربه!

اللَّه عزَّ وجلَّ يُورد الصفات اللازمة لمجتمع المسلمين فيقول : ﴿ ... **وَأَمْرُهُمْ**

شُورَى بَيْنَهُمْ ... ﴾ [الشورى : ٣٨] ، ونصف مجتمع المسلمين مُسْتَبْعَدٌ تماماً عن الشورى في الأمر!

وغيرُ ذلك كثير!

ثم نتساءل بكل براءة : لماذا تخلَّف المسلمون ؟

المرأةُ المسلمة إذن مطالبة الرجل المسلم بالقيام بهذه القائمة الطويلة من الفروض الكفائية التي ذكرنا بعضها . ولأمر ما تكرر في القرآن الكريم كثيراً قَرْنُ الإيمان بالعمل الصالح . فليس الإيمان بالتمني ولكنه ما وَقَرَ في القلب وصدّقه العمل : ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** ﴾ [النساء : ١٢٣- ١٢٤] .

ولكن هذه القرون الطوال من إقصاء المرأة المسلمة عن القيام بهذه الواجبات الاجتماعية ، قد جعلت المناداة بها في عصرنا الحاضر أمراً غير مألوف ، وأوجبت البحث عن سُبُل لتفعيل دورة المرأة في جلب المصالح للمجتمع ودرء المفاسد عنه ، وترسيخ ولاية المؤمنات للمؤمنين ، وتمكين المرأة من الأمر بالمعروف وإتيان المعروف ، ومن القيام بهذه الصدقات التي تبرهن على مصداقية انتمائها إلى هذا المجتمع الفاضل .

وقد خطر لنا – في منظمة الصحة العالمية – أن نلج هذا الأمر من أحد أبوابه . ووجدنا أن في الإسكندرية – التي هي مقر مكتبنا الإقليمي – كما في معظم بلدات الإقليم ، عدداً كبيراً من المناطق التي نمت نمواً عشوائياً في أرباض المدن . وهذه العشوائيات تتصف بسوء أوضاعها الصحية والبيئية في مساكنها وطرقاتها وسكانها . فالخدمات الصحية والاجتماعية فيها متدنية ، وشروطها البيئية متدهورة ، وكثافتها السكانية مرتفعة ، والوعي بالمشكلات البيئية مفقود ، وفرص القيام بأعمال تنمي المهارات الحرفية للنساء غير متوافرة ، ومشاركة المرأة في حل مشكلات المجتمع المحلي معدومة .

وقد اخترنا ثلاثاً من هذه العشوائيات ، واتفقنا مع إحدى المنظمات غير

الحكومية على خُطة عمل لتحسين الظروف الصحية والبيئية فيها . وانضمَّت إلينا جامعة الإسكندرية وقادةُ المجتمع المحلي وبعضُ موظفي محافظة الإسكندرية . وحُدِّدت أهداف المشروع بتحسين الشروط البيئية ، ولا سيّما النظافة العامة والتخلّص من النفايات الصلبة ، وتوعية أفراد المجتمع المحلي ولا سيّما النساء والأطفال حول الأمور الصحية والبيئية والاجتماعية ، والعملِ على انضمامهم إلى مسيرة التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، وإيجاد وسائل لاستدرار الدخل ولا سيّما من خلال الأنشطة المتصلة بالبيئة ، وتَحفيزِهم على تحسين ظروفهم السكنية والصحية والبيئية والاقتصادية .

وتعاقدت منظمة الصحة العالمية مع جامعة الإسكندرية على تدريب اثنتي عشرة شابة من كل مجتمعٍ محلي ، تتراوح أعمارهن بين الثامنة عشرة والثلاثين ، ممن بلغن مستوى متوسطاً من التعليم . وكانت الغاية من التدريب بناءَ قدراتهن في مجال إصلاح البيئة وفي مجال التنمية المضمونة الاستمرار ، بحيث يصبحن قادرات على تدريب وتوعية ربات البيوت في مجتمعاتهن المحلية . وقد شاركت هؤلاء الفتيات في رسم خُطة التدريب وبرنامجه بما يلبي حاجاتهن وحاجات مجتمعهن ، وبما ينمي مهاراتهن في أنشطة لاستدرار الدخل . وقد ركز البرنامج التدريبي الأول على المشاكل البيئية بوجه عام ، ولا سيّما التخلص من النفايات الصلبة ، وإعادة استعمال ما يمكن استعماله منها ، وعلى مخاطر تلوث الهواء والتدخين وعلى تنقية المياه الملوثة وعلى الإقلال من هدر الماء ، وعلى زيادة الرقعة الخضراء ، وعلى ضمان مأمونية الغذاء . وأقيمت حلقات عملية عدة تناولت – في ما تناولت – طرق تحضير الغذاء الصحي ، وصناعة السِّلال من مصادر موجودة في الطبيعة ، والتفقدَ البيئيَّ للمدارس ، والإسعافَ الأولي ، وتَوَقِّي الممارسات التقليدية الضارّة .

وقد تمَّ توفير وسائل النقل لهؤلاء الفتيات ، وتلقّين بعض الدعم المادي ، ومُنحن لقب رائدات البيئة ، وهو لقب زاد من ثقتهن بأنفسهن وأعلى مكانتهن في مجتمعهن . وقامت المنظمة غير الحكومية بتزويد هؤلاء الرائدات بمعدّات لتنظيف الشوارع وجمع النفايات وبأربعة آلاف شجرة لتوسيع الرقعة الخضراء .

وقد كانت نتائج هذه التجربة مَبْعَثَ رضىً وارتياح ، وحققت نجاحاً

منقطعَ النظير ، دفعنا إلى تكرارها والاستزادة من أمثال هذه المشاريع . وأمعنت رائدات البيئة في ابتكار سُبُل جديدة لتحسين الصحة ، وتعزيز البيئة ، وزيادة الدخل في مجتمعاتهن المحلية .

وما هذه التجربةُ إلا مثالٌ بسيط على كيفية تمكين المرأة من الاضطلاع بدورها البناء في المجتمع . وإنما اتخذنا الصحة وإصلاح البيئة مدخلاً لأنهما من الأمور التي لا يتخلف فيها الناس ، ولا يماحك فيها المماحكون . وليس يخفى أن في وسع المرأة أن تضطلع بدورها الأصيل في تعزيز الصحة بأشكال متعددة .

فلها قبل كل شيء ، دورٌ رئيسي في التثقيف الصحي والتوعية الصحية ، وذلك ضربٌ من ضروب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد أسلفتُ قبل قليل ذكرَ بعض المعروفات والمنكرات الصحية ، فذكرت الإرضاع من الثدي وتطعيم الأطفال في باب المعروف ، وذكرت محاربة التدخين ومكافحة فساد البيئة في باب المنكر . ولكن قائمة المعروف والمنكر في الميدان الصحي قائمة طويلة جداً ، والمرأة أقدر الناس على الأمر والنهي في هذا المجال .

وللمرأة دورها المهم في التغذية ؛ بل هي في حقيقة الأمر التي تقوم بتغذية العالم كله . ولا يسمح الوقت لي بالحديث عن دورها في إنتاج الغذاء ، وهو دور كبير كما يتضح من تقارير منظمة التغذية والزراعة الدولية ، ولكني أوَدُّ التذكير بدورها في اختيار الغذاء لأسرتها وحسن إعداد هذا الغذاء بأفضل الطرق الصحية ، ودورها في الوقت نفسه في توجيه سائر أفراد المجتمع إلى مقوّمات الغذاء الصحي ، وكيفية اتباع الشروط الصحية في إعداد الغذاء ، وكيفية المحافظة على سلامة الغذاء ومأمونيَّته . والأهم من ذلك كله غرسُ العادات التغذوية الصحية في أبنائها .

والمرأة هي الرائدة في تطعيم الأطفال . وقد كفانا في حملتنا في منظمة الصحة العالمية لتطعيم الأطفال في أفغانستان ، أن نبث الدعوة إلى نساء هذا البلد من خلال الإذاعة ، فاستجابت المرأة الأفغانية التي تُوصَم بالتخلُّف استجابةً لم يكن يتوقعها أحد ، وأتت النساء بأطفالهن إلى مراكز التطعيم أفواجاً ، وبلغت التغطية بالتطعيم نسباً عالية تُقارَن بمثيلاتها في البلدان المتقدمة ، مع أن البلد في حالة حرب وكرب .

والمرأة هي المسؤولة الرئيسية عن توفير الماء الصالح للشرب لأسرتها ، وكثيراً ما تحمل الماء من مسافات طويلة ، وتغرس في أفراد أسرتها عادات النظافة الشخصية الصحية والتخلص من النفايات والفضلات .

والمرأة هي التي تضطلع بالعناية بالأم الحامل والمرضع وبرعاية الطفل ، وهي التي تتخذ المبادرات في مثل حالات الإسعاف الأولي لحوادث الأطفال ، وتقرر الحاجة إلى استعمال الخدمات الصحية لنفسها ولأفراد أسرتها على حد سواء .

والمرأة هي التي تضطلع بالتدبير العلاجي لكثير من الحالات المرضية البسيطة التي لا يُراجَع الطبيب من أجلها في غالب الأحيان ، كالصداع ، والإمساك والإسهال ، والتهاب الحلق ، ونزلات البرد ، وارتفاع الحرارة الخفيف ، وهي التي تتخذ من الإجراءات ما يقي أفراد الأسرة الآخرين ويكفل عدم عودة المرض من جديد .

والمرأة هي التي تقوم بإعطاء الأدوية لمرضاها ، وتتكفل بحفظها بعيداً عن الرطوبة والحرارة وعن أيدي الأطفال .

كل هذا ونحن لم نتحدث عن دور المرأة طبيبةً ، أو ممرضةً ، أو زائرةً صحيةً ، أو عاملةً مهنيةً في مركز من المراكز الصحية أو مؤسسة من المؤسسات الصحية .

وإنما أردت بذلك أن أشير مجرد إشارة إلى ما يمكن للمرأة أن تفعله في المجال الصحي وحده . فكيف بسائر مجالات الحياة ؟

وبعد ، فإن كثيراً من المخلصين يُقْلقُهم أن يكون في قيام المرأة بما أوجبه اللّه عليها من نشاط اجتماعي ، تشبُّهٌ بالآخرين ، الذين تعاني مجتمعاتهم من الفوضى الأخلاقية والتفكك الاجتماعي . وأحبُّ أن أذكِّر هؤلاء الإخوة الأحبَّة ، بعبارة نفيسة للإمام ابن تيمية رحمه اللّه [في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٧٧] يقول فيها : « والكلام إنما هو في أننا مَنْهيُّون عن التشبُّه بهم في ما لم يكن سَلَفُ الأمة عليه ، فأما ما كان سَلَفُ الأمة عليه فلا ريب فيه سواء فعلوه أو تركوه ، فإنا لا نترك ما أمر اللّه به لأجل أن الكفار تفعله! » .

ثم إن عمل المرأة في بيتها ومجتمعها لا يُفترض أن يُخل بحسن تربيتها لأولادها ،

كما تدلّ على ذلك ممارسة المرأة في عصر الرسالة . فعن أسماء بنت أبي بكر رضي اللّه عنها قالت : « **تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ وَمَا لَهُ فِي الأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلا مَمْلُوكٍ وَلا شَيْءٍ غَيْرَ نَاضِحٍ** (وهو الجمل الذي يُسقى عليه الماء) **وَغَيْرَ فَرَسِه فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ وَأَسْتَقِي الْمَاءَ وَأَخْرِزُ غَرْبَهُ** (أي أخيط دلوه) **وَأَعْجِنُ** ... **وَكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ عَلَى رَأْسِي وَهِيَ مِنِّي عَلَى ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ** (أي ميلَيْن) ... **حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَادِمٍ تَكْفِينِي سِيَاسَةَ الْفَرَسِ فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَنِي** » [متفق عليه] . فهل جَعَلَ هذا العملُ كلُّه ذاتَ النطاقَيْن تسيء تربية عبد اللّه بن الزبير وعروة بن الزبير ؟ اللّهم غفراً .

ألا إنه لا يصلُح أمرُ آخر هذه الأمة إلا بما صَلَحَ به أولها ، ولا بُدّ إذا أردنا الفلاح من أن نأخذ الكتاب والسنَّة بقوَّة ، ونقتحم العقبة بجرأة ، ونُقدم على إحياء دور المرأة المسلمة كما مارسته في عصر الرسالة والخلافة الراشدة ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

****

****

****

****

****

****

****

****